

له ابواب الهداية بما يُعرض عليه من المؤثرات التي يستفيد منها العلم بما يكون نافعا او ضارا فيألف النافع وينفر من الضار ولا تزال القوى العقلية تنمي بالممارسة والاكتساب طوراً فطوراً والاستعداد الطبيعي يمد امامها سبل الارتقاء حتى تبلغ الشأو العجيب . ومن الغريب ان الانسان في بدء امره ينسى كثيراً من الحوادث والآثار التي ترد عليه فلا يحفظ منها الا ما كان مفيداً له في امر تنازع البقاء . ولذلك كانت الذاكرة ضعيفة في اول العمر

ومعلوم ان هذه القوى تكون في الحيوانات غريزية في اصل فطرتها فالغراخ مثلاً تلتقط الحب حالما تنقف وأجراة الكلاب تمشي عند ما تولد والمهر يستوي على قوائمه حينئذ والقرد يتسلق الاشجار بحفة منذ ولادته . ولكن ذلك فيها يقف عند درجة القوة البهيمية فلا يتعداها الى القوى السامية المميزة للانسان وهي التي تدخل تحت الارادة والعقل وتأخذ في البناء والارتقاء منذ اول اطوار حياته على ما تقدم يانه حتى تبلغ فيه الى درجة الكمال

المصريون

(تابع لما قبل)

والقبط من حيث المذهب ينقسمون اليوم الى ثلاث فرق ارثوذكس وانجيليين وكاثوليك والارثوذكس هم اقدمهم عهداً واكثرهم عدداً واشدهم

١ زعم بعضهم ان القبط يبلغون الان ٧٠٠,٠٠٠ فاكتر ولم تقف على ما ثبت هذا القول في احصاء يعتمد عليه والذي تحقناه على ما في المؤلفات الموثوق بها انهم لا يزيدون على ١٥٠,٠٠٠ كما تقدم لنا ذكره (راجع موسوعات العلوم الفرنسية الكبيرة في لفظة «كنيسة القبط» صفحة ٦٢٦ من المجلد ١٥) الا ان فلاماريون ذكر في معجمه الجارى الان طبعه انهم يبلغون ١٦٠,٠٠٠ وعلى كل حال فالحقيقة

اعتصاماً بالعقائد المسيحية على ما كانت عليه الى المجمع الحلكيدوني سنة ٤٥١ من المبالغة في التورع والقنوت وتطويل العبادات . وقد نبغ في الكنيسة الاسكندرية التي ينتسب اليها بطاركتهم رجال لم تزل آثارهم ومؤلفاتهم تشهد بما كان لهم من الفضل والحكمة ولا سيما في القرن الثالث الى آخر الخامس ولا غرو فان مدرسة الاسكندرية كانت نبراس الفلسفة المشرقية الذي استضاءوا بنوره وانااروا العالم الى ان خبا بهبوب ريح المباحكات في العقائد المذهبية وما انضم الى ذلك من اسباب المشاحنات والمنافسات بين رجال الدين ولا سيما بعد ان رُفِع اسقف برنطية الى مقام بطرك مسكوني بانتقال كرسي القياصرة اليها حتى آل الحال الى الشقاق والافتقار فاستقلت البطريركية الاسكندرية ولبثت محافظة على لقب الكنيسة المرقسية وجعلت كرسيها القاهرة . وكانت الحبشة تابعة لها فكان البطريرك ينصب رئيس كهنيتها الذي يسمونه « ابونا » وبقي الامر على ذلك الى القرن السادس عشر . ومن ذلك يُعلم ان الرابطة الدينية بين الحبشة والقبط موشة العرى لم يُضَيَّف استحكامها الا انحطاط رجال الدين من هذه الطاقة فانهم لو اقتنوا آثار الصلحاء من اسلافهم وحافظوا على تقاليدهم القديمة لكانت الأمتان أمة واحدة لا يصدّها عن الجد في سبيل الحضارة الا تفرق الكلمة وعدم اكتراث الرؤساء . بتحصيل العلوم التي يتوقف عليها نجاح الأمة وارتقاء شأنها وقد شط فريق من نخبة رجال هذه الطاقة وأفاضلها لتدارك تلك الحال والنهوض بالأمة الى مجارة غيرها من الأمم السائرة في سبيل التمدن المصري فأنشأوا جمعية في القاهرة سموها بالجمعية التوفيقية وجعلوا لها فروعاً في

لا يقطع بها الا بعد ظهور الاحصاء الذي شرعت فيه الحكومة ولعل موعداً به قرب ان شاء الله

سائر أنحاء القطر وانحاز اليها المتأدبون وارباب الحية والالمية من كل صوب
مستمكنين بعروة الاتحاد الوثقى متوسلين الى اقامة الأود وتعميم التهذيب بانشاء
المدارس والالحاح في وجوب تعليم رجال الدين وثيقف عقول الإناث . وعلى
كون هذه اول خطوة لم في هذا السيل فمع ما شوهد فيهم من المواظبة
والثبات في طلب التقدم ومع ما هو متوفر لهم من الذرائع المبلغة الى نيل تلك
الاماني على اتم وجوها فالأمول انهم لا يمضي عليهم طويل زمن حتى يصلوا
الى المنزلة التي يتقاضاهم العصر بلوغها ويسرهم ان يصفهم بها الواصفون

وأما الفلاحون ويقال لهم العرب وانما هم في الحقيقة اخلاط من القبط
الذين اسلموا والعرب الذين استولوا على البلاد منذ ايام عمرو بن العاص فتحضنتهم
مصرية وان كانت لغتهم عربية وآدابهم اسلامية . ويكفي لثبوت ذلك مقابلتهم
بصور قدماء المصريين فيرى ان شكل القحف غير مستدير كما هو في العرب
ولكنه مستطيل قليلاً كما في الموميا . والجهة غير عريضة والشخص الوجهي كما
هو في القبط وكذلك العنان فما نجلان وان الفم فهو باسم غليظ الشفتين والمنكبان
عريضان والاطراف مسطحة مرتبطة بقوائم نحيفة كما هو الحال في التماثيل القديمة .
ومدلول ذلك ان اختلاط العرب بالقبط كان كاختلاط اليونان والرومان بهم
ضعيف التأثير ومثل ذلك اختلاط الكرد والترك وغيرهم بهم في الازمنة المتأخرة
كأن العنصر الاصلي اكثر ملائمة لأثر الأحداث الطبيعية فهو يتفق مع تأثير
الاقليم في احتضام العناصر الاخرى متطلباً عليها على تراخي السنين ولذلك كان
الفرق بين القبط والفلاحين مقصوراً على الحالة الاجتماعية واكثره صادر عن
اختلاف الدين . اما من حيث الخصائص الطبيعية فلا فرق بينهم فيها يستد
به مع ما عرض على الفلاحين من اسباب الاختلاط وثبوت القبط مستقلين

بخصائصهم لانحصارهم في شؤونهم الطائفية واستمرارهم على عوائدهم الاصلية . ولا
عبرة باللون في التميز بين سلالة واخرى ما لم يكن مضافاً الى غيره من
الخصائص الطبيعية اللازمة غير العارضة بسبب امر خارجي فلون الفلاحين
يزداد سمرة بمقدار ما يقتربون الى الجنوب وهو يكون في الاسكندرانيين اغثر
وفي سكان مصر الوسطى اصحمر وفي اهل الصعيد آدم وفي المنتشرين على
حدود نوبيا اسهم . ومعلوم ان اللون يتوقف على نوعية المعيشة فالذين يصرفون
حياتهم بالشغل في حر النهار تحت اشعة الشمس يكون لونهم اداكن بخلاف الذين
يمشون بالرخاء في ظلال البيوت والاسواق والمساجد فلونهم يكون اصفى وانقى
وما احسن ما قال المتنبي

تسود الشمس منا يض اوجها ١ ولا تسود يض المذر واليم
وكان حالهما في الحكم واحدة ٢ لو احتكنا من الدنيا الى حكم

ونساء الفلاحين رشيقات القوام عليهن لحة من الجمال ولكن العواطف
قلما يظهر تأثيرها على ملامحهن مع دَعَج عيونهن . على ان جمالهن لا يثبت
الا قليلاً فهن ينمن بسرعة ويبلغن في الثانية عشرة من عمرهن ويلدن كثيراً
فاذا بلغت العشرين ذوت نضارتهم وجف ما اله الحسن من وجوههن وقعست
صدورهن حتى يخيل ان عمرهن حينئذ خمس واربعون ولذلك فكثيراً ما
يتعمدن التزويج وما يصلح العطار ما افقد الدهر . ومن الغريب ان اطفالهن
يُنَحَقون نخافاً هازيل كأنهم لم يولدوا ليعيشوا وتظهر عليهم في الطور الاول من
اطوار الحياة علامات الكساح من ضعف البنية واسترخاء البطن وكبره فكثيراً
ما يهلكون صغاراً لعدم الاعتناء بهم الا الذين اُتيح لهم الفوز في مغالبة الامراض
فان احوالهم تستقيم في طور البلوغ فتتغير اطرافهم وتبديل ملامحهم فتبدو عليها

امائر القوة والرجولة في القيان واللف والاعتدال في القيات
ومعلوم ان الامة المصرية لهذا العهد يتألف معظمها من الفلاحين وعددهم



غير معروف بالضبط
والدقيق لانه لم
يوجد حتى الآن
احصاء يصح الاعتماد
عليه الا الاحصاء
الذي أجري سنة
١٨٨٢ وقد بلغ مجمل
سكان القطر بموجبه
٦,٨١٨,٠٠٠
واقول ما يقال فيه انه
صار متقادماً العهد
ولاه سباً بعد طروء
الاحداث المهمة في
القطر منذ ذلك التاريخ
فضلاً عما وجد فيه
حينئذ من الخلل اذ
ثبت عند جمع الرديف
في احدى المديرات

ان ٤٢,٣٠٧ اشخاص لم يقيدوا في سجلات الولادة وان ادارة الصحة في مديرية

القرية تحررت في احدى السنين سجل المواليد فوجدت ان ٨٠٠٠ طفل لم
تقيد اسماءهم فيه فما ادى الحكومة المصرية مع حرصها على الاصلاح وايقاظها
حسن النظام والضبط باجراء احصاء يتكفل ببيان الحقيقة لا يترتب عليه من
الفوائد. والحاصل ان الاحصاء المذكور يؤخذ به على علته بوجه التقريب واذا
أخذت مساحة الارض التي يشغلها السكان وقُسمت عليهم حصل لكل ١٧٨
نفساً كيلومتر مربع وذلك ما لم يبلغه محل في جميع ممالك اوربا

والمصريون من حيث المدنية اخوان في الدين متساوون في الحقوق
يأتمرون باوامر الشريعة الاسلامية التي هي شريعة البلاد وينتهون بنواهيها
ويحترمون ائمتهم وعلماءهم ويحفظون القرآن والسنة وعندهم العصية ولكنهم ليسوا
بمتعصبين كثيرهم ممن اعمام الجهل واصمتهم الغباوة لطفاء المحاضرة على دماء اخلاق
ولين عريكة كرام في ضيافتهم سريعو التودد اذ كياه الخاطر يضرب المثل بهم
في البداهة وسرعة الجواب وفي طباعهم الميل الى الدعة والكون والقناعة
والاعراض عن النظر في العواقب والاستسلام لحكم القضاء والقدر على نحو
ما قال الشاعر

جرى قلم القضاء بما يكون فبان التحرك والكون
جنون منك ان تسمى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

وقد أكثر المتكلمون في الطبائع من الكلام على الطلاق وتعدد الزوجات
فأثبتوا انها من دواعي ضعف الشرقيين حساً ومعنى وأطالوا في امتحان الشرقيين
نساءهم ومنعهم من التعليم والتهذيب ومعاملتهم كالحيوانات على زعمهم الى غير

١ بلغنا بعد جمع هذه المقالة ان الحكومة قد شرعت في احصاء سكان القطر فسنى
ان يكون هذا الاحصاء الجديد بالغاً غاية من الدقة والضبط

ذلك مما لا يصح إطلاقه ولا يخلو من المبالغة. على أن كثيرين من افاضل مصر وسوريا لا يوثرون كثرة الزوجات على الزوجة الواحدة ويكرهون الطلاق ويماملون نساءهم بالحسنى ولا يمنعون بناتهم وسائل العلم والتهذيب

وقد غلب على اصحاب الوجاهة والثروة من المصريين تحدي العوائد الغربية في الملبس والمأكل والمفرش والزيارة والعبادة وتعليم الاولاد حتى نبذوا لغتهم العربية واهملوها فما افادوا ولا استفادوا الا قليلاً. ومن العجب ان فريقاً منهم مع اعتصامهم بمروءة الدين الاسلامي لا يقرأون كتب الشرع العربي ولكنهم يتعلمون ما سمي بعلم الحقوق باللغة الفرنسية طمعاً في الحصول على الشهادة المدرسية التي يقتضيها قانون الحكومة فلا يُسمح بدونها لاجل كان ان يُقبل في المحاكم وكلاً عن المدعي او المدعى عليه فلو احسنت الحكومة ترتيب المدارس على وجه يكفل للطلبة بالتجّاح المقصود لكانت في غنى عن خسارة رجالها الذين ربّتهم لينفع غيرها بهم فان الذي ينشأ في فرنسا مثلاً يكون فرنسويّاً والذي ينشأ في المانيا يكون المانياً والذي ينشأ في انكلترا يكون انكليزياً ومصلحة الوطن لا تقوم بشيء من هذا. واعجب من ذلك ان ادارة المعارف موكولة الى من لا يحسن معرفة لغة هذا القطر الذي ما يرح الى هذا العهد حتى اللغة العربية الوحيد ومنتهج آمال مريديها من مفيد ومستفيد ولنا على ذلك كلام زججّ الاقاصية فيه الى غير هذا الموضع. وقد رأينا ان نشوء هذه العوائد واراد من قبيل نفوذ الاوربيين وتدخلهم في المصالح الادارية والسياسية. واما رجال الدين والتجار والعامة فلم يزالوا محافظين على عوائدهم القديمة عملاً بالشرعية والتقليد وزعيم معروف والعلماء يمتازون بالعلماء البيض والاشراف بالعلماء الخضر. واصحاب المناصب والموظفون في الحكومة كلهم يتزويون بالزني الافرنجي ولكنه

يترتب عليهم ان يلبسوا الطربوش ولو كانوا من الاجانب وفي الرسميات ان يتزوا
بما يُعرف بالاستنبولينا اقداء بالحضرة الخديوية النخبة الحريصة على المحافظة على
الشعار العثماني

ومن عوائد المصريين واخلاقهم انهم ميالون الى اللهو والطرب يؤثر
القناء وسماع الالحان الشجية الرفيعة النغم على سماع الموسيقى الاوربية ولم في هذا
الفن تصرف واسع فربما ابتكر المطرب صوتاً يُحفظ عنه فينتشر في البلاد ويم
استعماله فيشدو به الراح والنادي والملاح والحادي فكأن هذا الميل فيهم
طبيعي يظهر في سكناتهم لتفيه عواطفهم وفي حركاتهم للحث على العمل فترام في
الموالد والاعياد والاعراس والولائم والملاهي ومجال القهوة يتجمعون زرافات
زرافات لسماع القناء على نغم الاوتار وفي شهر الصوم ينشدون الذكر حتى ان
البياعين المتقلين يطوفون الاسواق والشوارع وهم ينادون على الايقاع للاقبال
على الشراء والفعلة تحت الاحمال الثقيلة يتراسلون التحين كانهم يخفون به وقرأ
على كواهلهم - ومنها انهم مولعون بقهوة البن الا أن بعضهم يستعمل الحشيش
تدخيناً وهو شر المسكرات لانه يؤدي الى الخمول وضعف العقل وموت
الوجدان وبالتالي الى انحطاط الحالة المدنية

وقد أطلعنا في هذا الباب فتقف منه عند هذا القدر خشية الملل ولعلنا
نعود الى توفيت حقه في فرصة اخرى ان شاء الله تعالى

